اللواء والراية ودلالتهما في الشعر العربي قبل الإسلام

د. أيهم عباس حمودي
كلية الآداب – جامعة بغداد

حفلت الحياة العربية قبل الإسلام بمجموعة من الممارسات التي ارتبطت بظاهرة الحرب ذاتها ، لأنها من المستلزمات المكملة لها ، ومنها اللواء والراية اللتان صاحبتا الحرب منذ القدم ، وارتبطتا بها .

(واللواء علم يمسكه رئيس المحاربين ، ثم صار يحمله على رأسه ، وقال أبو بكر بن العربي : اللواء غير الراية ، لأن اللواء ما يعقد في طرف الرمح ، ويلوى عليه ، والراية ما يعقد فيه ويترك حتى تصفعه الرياح ، وقيل اللواء دون الراية ، وقيل اللواء العلم الضخم ، والعلم علامة على محل الأمير يدور معه حيث دار ، والراية يتولاها صاحب الحرب)[١] .

ولم يفرق بعض اللغويين بين العلم والراية ، ومن هؤلاء الفيروز آبادي الذي يرى أن العلم هو الراية . وما يعقد على الرمح[٢] .

واللواء والراية من الرموز الكبيرة التي يعتز بها العرب ، فإذ رُفعت فوق الرؤوس أثارت في النفوس حماسة الأندفاع ، وأثارت حمية المواجهة . وكانت لكل قبيلة رأيتها التي ترفعها لتعرف بها ، وتتميز بها من غيرها من القبائل .

(ولذلك أتخذوا في الحروب الرايات والإعلام ، وأنما ذلك كله خرق سود وحمر وصفر وبيض ، وجعلوا اللواء علامة للعقد ، والعلم في الحرب مرجعاً لصاحب الجولة ، وقد علموا أنها وأن كانت خرقاً على عصيٍّ أن ذلك أهيب في القلوب وأهول في الصدور ، وأعظم في العيون)[٣] .

وللجيوش ألوية ورايات يحملها المقاتلون الشجعان المعروفون بصبرهم على القتال ، وثباتهم في النزال ، وإذا قتل حامل الراية قام آخر من الشجعان

بحملها ، ويستميت المقاتلون في الدفاع عن رايتهم . لأن سقوط الراية وأنتكاسها معناه هزيمة أصحابها وعجزهم عن القتال . وخور عزيمتهم ، وكل تلك هي علامات الهزيمة والفرار .

ولا يشترط في الألوية والرايات أن تكون قديمة متوارثة ، فقد تعقد عند بدء الحرب ، يعقدها الرؤساء ويسلمونها إلى الصناديد الشجعان لتكون سنداً للمحاربين ورمزاً يستمدون منه العون والقوة ، وتسمى بأسماء قد يتصايحون بها عدد أحتدام القتال ، وذلك لإثارة النفوس وبعث الحمية فيها .

أما لون الراية وطولها وعرضها فذلك من شأن الرؤساء والمشايخ وزعماء القوم ، ومما يرويه الجاحظ في هذا الصدد أنهم ربما جعلوا العمامة لواءً ، الا ترى أن الأحنف بن قيس ، يوم مسعود بن عمرو ، حين عقد لعبْس بن طلق اللواء، أنما نزع عمامته من رأسه فعقدها له[٤] .

وقد حمل لنا التاريخ الكثير من قصص البطولة النادرة والشجاعة الفائقة التي كان يبديها حملة الرايات ، الذين ظلوا يحملون رايات قبائلهم على الرغم من سيول الضربات والطعنات التي تعرضوا لها ، وأستمروا يدافعون عن شرف حملها ورفعها ، لتظل الرايات خفاقة والألوية مرفوعة لما يرتبط به رفعها من كرامة وعزة .

ومما يدل على أهمية الراية عند العرب ، وعلى مكانتها عندهم ، أنهم كانوا يسمون (لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أمّاً)[٥] . وكانوا يجتمعون لها في النزول والرحيل وعند لقاء العدو .

(وكانت لقريش راية يحتفظون بها ويحاربون تحتها تسمى "العقاب" وهي راية قريش ، وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب ، فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب ، وإن لم يجتمعوا على أحد أخذها صاحبها فقدموه، ولم تكن قريش بدعاً في ذلك فقد كانت للقبائل رايات أخرى يتوارثونها ويحافظون

على تسميتها ، وتحتفظ بها أسر خاصة أو سادات قبائل تعتز بذلك ، وتعدها من أعظم درجات الفخر والتكريم)[٦] .

ومما يرويه الجاحظ في معرض ردّه على الشعوبية وفخره عليهم قوله : (وليس لكم في الحرب صاحب علم يرجع إليه المنحاز)[٧] وفي هذا القول دلالة واضحة على أهمية صاحب الراية أو اللواء ، لأن سقوطه وهزيمته يعني خسارة الحرب .

ومن هنا فقد كانوا يختارون حملة الرايات من بين أشجع المقاتلين وأصلبهم في المعارك ، لأن هؤلاء قادرون على إدامة استمرار المعركة ، وعلى ثباتهم يتقرر النصر .

وقد وردت في الشعر العربي قبل الإسلام إشارات عديدة إلى اللواء والراية والعلم والعقال والخال ، ولكن الذي يلاحظ على هذه الإشارات هو الخلط الواضح في استعمالها ، وعدم وجود حدود فاصلة بين هذه المسميات منها .

فقد ذكر صاحب اللسان (أن اللواء ، العلم والجمع ألوية ، وألويات جمع الجمع قال : جنح النواصي نحو ألوياتها)[٨] . وذكر النويرتي (إن الأم : هي العلم الذي يتبعه الجيش ، والبند هو العلم الكبير ، و (العلم) هو الراية ، وقيل الذي يُعقد على الرمح ، والعُقاب هو العلم الضخم ، والغاية هي الراية واللواء دون الإعلام والبنود)[٩] .

وقد ورد أن النبي (ﷺ) كان يعقد لأمراء سراياه الرايات عند بعثها ، ويعبر عن بعضها بالعصائب جمع عصابة ، وهي الألوية أخذاً من عصابة الرأس ، لأن الراية تعصب رأس الرمح من أعلاه ، وسميت الراية بذلك ، لأنها تكون في أعلى الرمح .

وقد زخر الشعر العربي قبل الإسلام بمفردات اللواء والراية والعقاب ، وهي مفردات تتقارب في المعنى وتتماثل في الدلالة ، يؤكد ذلك ما أشارت إليه النصوص الشعرية ، لاسيما في حديث الفخر .

فيفخر عبيد بن الأبرص بشجاعة قومه واقتدارهم عند علاقاتهم بني جديلة، فيصور جموعهم الحاشدة ، وحملهم العقاب (الراية) في رأس رمح ، كأنه الطائر في علوه وارتفاعه ، وهي صورة تشير إلى الزهو والكبرياء ، وقد أشار إلى ذلك في قوله :

بُمعضَلٍ لجبٍ كأنَّ عُقابَهُ في رأسِ خرْصٍ طائرٌ يتقلّبُ[١٠]

ويفخر النابغة الذبياني بلواء قومه ، الذي يحمله بطل ماجد تسير خلفه جموع المقاتلين في كتائب مدججة بالدروع التي استحالت خضراً لطول ارتدائها، فيقول :

لهم لواءٌ بكفّي ماجد بطل لايقطع الخرق إلا طرفه سام

يهدي كتائب خضراً ليس يعصمها الا ابتدار إلى موت بالجام[١١]

ويشخص عنترة شجاعة قومه وبطولتهم في يوم عراعر فيجعل جموعهم تتهادى كتائب شهباً ، فوق كل كتيبة لواء يرفرف في الهواء كأنه طائر يتقلب في طيرانه ، ويبدو ظله في الأرض دلالة على أن اللواء يُظلّ ما تحته ، وقد أشار إلى ذلك في قوله :

كتائب شهباً فوقَ كلِّ كتيبةٍ

لواءٌ كظلِّ الطائر المُتَصَرِّف[١٢]

ويجعله في صورة أخرى مثل ظل الطائر المتقلّب ، الذي يطير فيقلب جناحيه ، ويصرفهما ، فجعل الألوية تهتز فتترك ظلالها على الأرض مثل ظلال أجنحة الطير ، وقد أشار إلى ذلك في قوله :

كتائبُ تزجى ، فوق كلِّ كتيبة

لواءٌ كظلِّ الطائرِ المُتقلِّبِ[١٣]

ويصور الطفيل الغنوي مشهد النصر الذي حققه قومه – في معرض فخره بشجاعتهم – من خلال صورة اللواء الذي اخترق حمى أعدائهم ، فقال في ذلك :

فما برحوا حتى رأوا في ديارهـــم

لواءٌ كظـــلِّ الطائـــرِ المُتقلّـــبِ[١٤]

ويبدو من خلال استقراء الشعر ، أن قسماً منهم كان يرفع علماً في الحرب ليدل على نفسه ومكانه ، وفي ذلك يقول أوس بن حجر :

رأتني معدٌّ مُعلمـــاً فتناذرت

مُبادهتي أمشي برايـــة مُعْلـــم[١٥]

ويصوّر الأعشى ممدوحه – ربيعة بن حيْـــوة – وهـــو يشـــهد المعـــارك ويخوض غمراتها والرايات تخفق فوق رأسه ، فيقول :

ولقد شهِدْتُ الجيش تخْـــــ ـــفقُ فوق سيِّدِهـــم عُقابـــهُ[١٦]

وتبقى صورة اللواء مقترنة بظل الطائر المتقلب ، وهي إشارة تتكرر فـــي قصائد الشعراء ، لأنهم يجدون فيها ما يضفي على الصورة التي يريدونها طاقـــة وحيوية ، وهم يتأملون شموخه ويعتزون بعلوه .

ولم يغفل الشاعر العربي قبل الإسلام ، وهو يصوّر مشهد هزيمة أعدائـــه واندحارهم صورة لوائهم الذي يتولى مثلما يتولى المقاتلون مهزوماً مدحوراً ، وفي ذلك إشارة واضحة إلى قيمة اللواء وأهميته في توجيه أحداث المعركة واتجاهاتها. فيثبت الأعشى وقومه في الحرب غير هيّابين ، ويسرعون الى الحرب بســـيوفهم، حتى يتولى لواء أعدائه مهزوماً ، وقد أشار إلى ذلك في قوله :

نقيم لها ســـوقَ الجِلادِ ونغْتَـــلي

بأسيافنـــا حتى نوجِّـــه خالهـــا[١٧]

ويصوّر الأعشى شجاعة العرب في يوم ذي قار من خلال تتابعهم علـــى راية الفرس في هذا الموقف المشهود ، فيقول :

هناك فِدىً لهـــم أمّـــــي غداة تواردُوا العَلمـــــا[١٨]

ويشير قيس بن الخطيم إلى شجاعة قومه من خلال أقامتهم لواء الحرب ، وهي صورة تومئ إلى حالة الاستعداد والتهيؤ ، التي ترافق حالة الحرب ، فيقول:

وإنّا إذا ما مُنتَرو الحربِ بلّحُوا نُقيمُ بأسْبادِ العرينِ لواءها(١٩)

ويفخر تأبط شراً بترؤسه الغزوات ، وحمله الرايات ، فيقول :

حَمّالِ ألويةٍ ، شهّاد أنديةٍ قوّال مُحكمةٍ ، جوّابِ آفاق(٢٠)

ولا يجد عنترة صورة أبهى في تشخيص بشجاعته وهو يواجه خصمه يوم اللقاء من مشهد هزيمة لوائه . فهو حينما يلاقي كتيبة يطاعنها طعان الشجعان ، ولا يتركها حتى يجردها من أعزّ ما تحرص عليه يوم اللقاء ، وهو رايتها ، فيحرص على أن يجردها من هذا الرمز البطولي ، لكي يجهز عليها ، ويجعل صورتها أكثر قتامة . وقد أشار إلى ذلك في قوله :

وإذا لقيتُ كتيبةً طاعنتُها وسلبتُها يوم اللقاء عُقابَها(٢١)

أما عمرو بن كلثوم التغلبي فأنه يرسم صورة رائعة لمشهد الرايات التي يحملونها ، فهم يدخلون الحرب برايات بيضٍ ثم يخرجون منها وقد ارتدت من دماء الخصم فاستحالت حمراء ، حيث يقول في ذلك :

بأنّا نوردُ الراياتِ بيضاً ونصدر هُنّ حمراً قد روينا(٢٢)

ويقترن عقد اللواء ورفع الراية بالسير إلى الحرب ، والتهيؤ لخوض المعارك والاستعداد للمواجهة . وقد يطلقون على اللواء اسم الخال كما ورد في قول الأعشى في معرض ردّه على بني عباد ومالك أبني ضبيعة مُكنّياً عن الهزيمة بتقهقر اللواء الذي يُهزم مدحوراً بعد أن تتهاوى عليه السيوف ، فيقول :

نقيم لها سوق الجلاد ونعتلي بأسيافنا حتى نوجّه خالها(٢٣)

ويمكن القول أن اللواء كان يرفع في الحرب ويدل على قبيلة معينة . فالنابغة عندما يصف قومه يصفهم ، وهم يحملون لواءهم ، وعنترة يفخر بهم ولواؤهم يخفق فوق رؤوسهم ، وقيس ابن الخطيم يشيد بقومه وهم يقيمون اللواء.

ومثلما ظلت صورة الراية تخفق فوق الكتائب في حديث الفخر . فإنها لم تغب عن تصور الشاعر العربي وهو يمدح أو يرثي أو يهجو . فحين مدح أعشى قيس بن شيبان في يوم ذي قار لما أبلوا فيه من البلاء الحسن ، فرسم صورة لتدافع بني شيبان وقد تسربلوا بالحديد الذي يبرق بيضه ، وقد ارتفعت راياتهم خفاقة ، فقال :

أتتهم من البطحاء يبرقُ بيضُها وقد رفعت راياتها فاستقلت(٢٤)

وصوّر عنترة شجاعة عبد الله بن الصمة من خلال تصوير بطولته المتميزة وقدرته على مقارعة الفرسان الشجعان الذين يردّون لواء الجيش المدجج بالسلاح ، فقال :

فإن يكُ عبد اللهِ لاقى فوارساً يرُدُّون خال العارِض المتوقِّدِ(٢٥)

واستعانت قارعة بنت شداد المُرّية وهي ترثي أخاها مسعود ابن شداد بصورة اللواء وهي تصوّر شجاعته وفروسيته ، لأن من يتحمل مسؤولية حمل اللواء لابد أن يكون متميزاً ، فقالت :

شهّادُ أنديةٍ . رفّاعُ ألويةٍ سَدّادُ أوهيةٍ ، فتّاحُ أسدادِ(٢٦)

كما هجوا خصومهم وعيروهم بأن رايتهم يحملها أناس غير مؤهلين لحملها. مثلما عيّر الأعشى عُمير بن عبد الله بن المنذر حيث عرّض بحاملِ رايتهم فقال :

مَقَامَ هجينٍ ساعةً بلوائهِ فَقُلْ في هجينٍ بين حامٍ وسلهم(٢٧)

وقد يكنّون عن الراية المخذولة بالعقاب الذي يسقط من مكان مرتفع ، وهو ما نعتت به راية لهامرز بعد الهزيمة حتى وصفها الأعشى ، بقوله :

كفوا إذا أتى الهامرز تخفق فوقه كظل العقاب إذ هوت فتدلت(٢٨)

والأبطال لا ينطقون الا بفعل قوتهم وعزة اقتدارهم حتى إذا أصطفت الرايات وارتفعت بيا هامات الرجال ، وهفت ذوائبها هفا القلب لها شوقاً وزهت

النفوس كبراً واعتزازاً . وفي قول عبيد بن الأبرص ما يوحي بهذه المعاني والدلالات حيث يقول :

كتائبُ تتبارى حول رايتـه وجحفل كسواد الليل جرّار(٢٩)

ومن الصور الطريفة للراية التي يقدمها لنا الشعر تلك الصورة التي أشار إليها أبو ذؤيب الهذلي والتي تصور جانباً من العادات والممارسات الحياتية . حيث يشير إلى الراية التي ينصبها الخمار على واجهة خمارته ليدّل عليها ، ومما يرويه الأصمعي في هذا الصدد أن التاجر إذا جاء بالخمر ليبيعها نصب على خمارته راية ليعلم أهل الحي أنه جاء بخمر . وقد اشار أبو ذؤيب الهذلي إلى تلك الصورة في قوله :

فما الرّاح راحُ الشامِ جاءت سبيّـةً

لها غايةٌ تهدي الكِرامَ عُقابُهـا(٣٠)

أن هذه القراءة الموجزة للراية ودلالتها في الشعر العربي قبل الإسلام تساعدنا في تكوين صورة حية عن جانب من الممارسات والتقاليد التي ارتبطت بأدب الحرب ، لأن الراية كانت جزءاً مهماً من مستلزمات الحرب ، وهي تكشف عن معانٍ نبيلة وقيم سامية ، اختزنتها صورة الراية ، وما كانت توحيه من دلالات ورموز في شعرنا العربي .

الهوامـــش :

١ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي / ٢٥٦ .

٢ - تاج العروس مادة (علم) .

٣ - البيان والتبيين ١١٩/٣ .

٤ - البيان والتبيين ١٠٥/٣ .

٥ - نهاية الأرب في فنون الأدب ٢١٨/١ .

٦ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام / ٤٣٢ .

٧ - البيان والتبيين ١٨/٣ .

٨ - اللسان مادة (لوى) .

٩ - نهاية الأرب في فنون الأدب ٢١٨/١ .

١٠ - ديوان عبيد بن الأبرص / ٦ .

١١ - ديوان النابغة / ٢٣٠ .

١٢ - ديوان عنترة / ٢٣٢ .

١٣ - المصدر نفسه / ٢٧٩ .

١٤ - شعر الطفيل الغنوي / ١٣ .

١٥ - ديوان أوس بن حجر / ٢٠٢ .

١٦ - ديوان الأعشى الكبير / ٣٣٩ - العُقاب : الراية .

١٧ - المصدر نفسه / ٣٥٧ - الخال : لواء الجيش .

١٨ - ديوان الأعشى / ٣٥٢ .

١٩ - ديوان قيس بن الخطيم / ٥٠ .

٢٠ - شعر تأبط شراً / ١٠٨ .

٢١ - ديوان عنترة / ٣٠٤.

٢٢ - شرح العقائد التسع .

٢٣ - ديوان الأعشى / ٣٠٧ .

٢٤ - المصدر نفسه / ٢٥٩ .

٢٥ - ديوان عنترة / ٢٨٨ .

٢٦ - الحماسة الشجرية ٣٠٤/١ .

٢٧ - ديوان الأعشى / ١٧٥ .

٢٨ - المصدر نفسه / ٢٥٩ .

٢٩ - ديوان عبيد بن الأبرص / ٤٦ .

٣٠ - ديوان الهذليين ٧٢/١ .